تلهمه لا بد من أن توجه إلى فؤاده نبالاً من ألم، ولا بد أن تجعله يعاني من العذاب الفظيع.

ولكن كيف تعذبه وتجعله يتألم؟.. إنها تصل إلى هذا بثلاث وسائل رئيسية: فهي تارة تؤلمه بتخييب ظنه فيها، وتارة تؤلمه برفضه والتعالي عليه والاستخفاف به، وتارة أخرى تؤلمه بجمالها الخارق.

وفي الحالات الثلاث نحن أمام الصورة الرومانسية للعلاقة بين الفنان والكون. ولتوضيح طريقة تعذيبه سنحاول أن نستعرض بعض آثار الحكيم التي تؤنسنا إلى ما نذهب إليه.

ولنعرض أولاً لروايته «عصفور من الشرق» التي تعد ـ كما أشرنا سابقاً ـ صيغة فنية لقصة حبه للفتاة الفرنسية «إيمادوران» التي حدثنا عنها في «زهرة العمر».

وقد سمى الحكيم نفسه في هذه الرواية «محسناً»، وسمى صاحبته «سوزي ديبون».

تنفتح الرواية على «محسن» يتجول في ميدان «الكوميدي فرانسيز» بباريس، وينتهي إلى تمثال الشاعر «دي موسيه» وهو يستوحي عروس الشعر، فيقف الفتى «محسن» يتأمل عبارة نقشت على قاعدة التمثال غير مبال بالمطر الذي كان يتهاطل عليه وحده في ا لميدان. والعبارة هي «لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم». ويتطلع إلى وجه الشاعر فيلفي قطرات المطر تتساقط على خديه، ويتخيلها دموعاً، فيترك قلبه لبكائه.

وتتوالى أحداث الرواية فنستطيع أن نميز من خلالها شخصية الفتى «محسن» الخارق في تأملاته وأحلامه، المتعبد في هياكل الفن حيثما وجدها. كما نعرف من خلالها أيضاً طبيعته الإنسانية، وذلك عدما يسمع جدة صديقه «أندريه» تعلم حفيدها الصغير «جانو» كراهية الألمان أعداء الفرنسيين، فيتساءل في أعماقه: «بأي حق تستطيع أم أن تنشىء ولداً على العداوة والبغضاء؟»[42].